إسرائيل بين الفناء والوجود ودعم الشتات اليهودي

الباب الثاني

مفهوم الشتات اليهودي في الرواية العبرية المعاصرة

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

أدباء الدراسة وموقفهم من قضايا الشتات اليهودي ودولة إسرائيل

«انطلاقاً من المقولة الشهيرة «الأدب تعبير عن المجتمع»، وحيث إنه لا يمكن للباحث أن ينتزع الكاتب أو يفصله عن مجتمعه، باعتباره عضواً فيه يتأثر به، ويؤثر فيه، فإن السيرة الذاتية للكاتب تعتبر بحق مصدراً رئيسياً لدراسة إنتاجه الأدبى، ولفهم البيئة المحيطة به، كما أن دراسة العمل الأدبى تعين الباحث أيضاً على تحديد العناصر المؤثرة والمكونة لحياة الكاتب بوجه عام»[(١)].

ومن هنا، فإن دراسة جذور الأديب الأولى، وخاصة إذا كانت فى الشتات، لها أهميتها وتأثيرها البالغ على حياة الأديب، وإنتاجه على مدى مشوار حياته، وفى مجتمعه الجديد (إسرائيل) المغاير، تماماً، لمجتمعه الأول الشتاتى.

وفى هذه الإطلالة سوف نلقى الضوء على حياة الأدباء الثلاثة (أهارون ميجد، وأهارون أبيلفيلد، وسامي ميخائيل) موضوع الدراسة، على اختلاف مشاربهم الأولى، ما بين الغرب والشرق، وعوامل التأثير فى فكرهم حول قضايا الشتات اليهودى، ومدى تأثيرها على الوضع الراهن فى إسرائيل، وقضاياها، ونزاعاتها في الداخل والخارج، ومع جيرانها، ومدى تطابق وجهات نظرهم وفكرهم حول تلك القضايا، من خلال دراسة وتحليل ثلاث روايات لهؤلاء الأدباء، هى: (فويجلمان، وحفرة الثلج، وفيكتوريا).

وعلى الرغم من اختلاف ثقافة، وفكر، وبيئة الأدباء الثلاثة، فإن هناك اتفاقاً من خلال

(١)إدريس، جلاء(دكتور): مؤثرات عربية وإسلامية فى الأدب الإسرائيلى المعاصر، دار الثقافة العربية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٦٥.

obeikan.com

أعمالهم الروائية على قضايا مهمة تؤثر على الدولة وتوجهاتها، مثل قضية الاندماج والتميز بين الطوائف الشرقية والغربية، والتمييز فى معاملة النازحين من الشتات، وانحراف الحاخامات بين الماضى والحاضر، وفى الشتات، وفى إسرائيل. وهناك اتفاق آخر له مغزاه الفكري، وهو الفخر بأدب وثقافة الشتات، في الغرب والشرق.

أولاً: أهارون ميجد، ورواية «فوبيجلمان» (١٩٨٧):

«ولد أهارون ميجد، عام ١٩٢٠م، بمدينة «فولتسلفيك» ببولندا، هاجر إلى فلسطين، عام ١٩٢٦م[١]. حطت قدماه فلسطين فى سن الخامسة والنصف»[٢]. وعلى الرغم من أنه تربى، وترعرع، وشب على أرض فلسطين، فإنه يقول: «إننى شخصياً، أولاً، وقبل كل شيء، لست من مواليد فلسطين، وكنت لفترة قريبة، أصنف بالطبع ضمن الأشخاص القادمين من الشتات»[٣].

وعن اللحظات الفارقة بين وجوده فى الشتات، ووصوله إلى أرض فلسطين مهاجراً من بولندا مع أسرته، يقول: « في صباح يوم مشمس، في أبريل (١٩٢٦)، وصلنا إلى يافا بالسفينة، وكان البحر هائجاً، ورست السفينة على مسافة من الميناء، وقام أحد البحارة العرب برفعي من على سطح السفينة بين ذراعيه، ثم أنزلنى فى قارب صغير حيث نزلنا على رصيف الميناء، ثم قام الموظفون الإنجليز ذوو الشوارب الصفراء بفحص جوازات سفرنا وأمتعتنا (عبارة عن صناديق تولى حملها الحمالون العرب)، وبعد ذلك كان العزل الصحى، فقد اقتادونا إلى «الكرنتينا»، وهى عبارة عن صالات واسعة بها حمامات ومراش للتطهير والتعقيم. ثم قاموا بتصنيفنا، الرجال في هذا الاتجاه، والنساء فى هذا الطريق، ولكننى أنا وأخى تم إرسالنا مع والدتى، وكان مشهد النساء العاريات ـ حيث كن كثيرات هناك ـ وهن يقفن تحت المراش، وأنا أسير عارياً بين أقدامهن، وهذا من أكثر الأشياء التى حدثت فى ذلك اليوم إثارة، في أول يوم لى فى الأرض المقدسة».

(١)כהן, אדיר: סופרים עבריים בני זמננו , הוצאת מזרח, תל אביב, 1979, עמ'95.

(٢)שקד, גרשון: הספרות העברית 1880- 1980, ד. בחבלי הזמן, הריאליזם הישראלי 1928- 1980, הקיבוץ המאוחד, כתר, ירושלים, 1993, עמ'291.

(٣)בסר, יעקוב: שיחות השבוע עם אהרון מגד, הגל החדש בספרות מנותק מן הרצף הקודם, על המשמר, 11/ 3/ 1994, עמ'19.

وبعد هذه المرحلة الفاصلة في حياته وحياة أسرته بعد الشتات، انتقل مع أسرته إلى تل أبيب، حيث كانت مدينة صغيرة، «أخذونا من يافا إلى تل أبيب في عربة سوداء، يجرها حصان أبيض، يقودها حوذي يرتدى طربوشاً أحمر. كانت تل أبيب، آنذاك، مجرد مدينة صغيرة، يقطنها حوالي أربعين ألف نسمة، وتحيط بها الرمال من كل جانب، وكانت شوارعها - بمنازلها البيضاء التى لا يزيد ارتفاعها عن طابقين أو ثلاثة - مفتوحة على البحر، وقوافل الجمال التى تحمل أكياس الحصى تجوبها، وتدق أجراسها»[١].

ويقر ميجد فى سيرته الذاتية بأنه أصبح صباراً[٢]، بعد أن أقام لمدة ستة أشهر فى تل أبيب، بعد وصوله من الشتات البولندى مهاجراً «لقد عشت فى تل أبيب لمدة ستة أشهر، وأصبحت خلال تلك الفترة «صباراً» كاملاً، أتحدث العبرية مثل سائر الأطفال فى لعبى، ونسيت البولندية، تماماً، كما لو أن ملاكماً لمس أنفى ليجعلنى أنسى هذه اللغة. لقد اعتدت السير حافي القدمين وبملابس داخلية قصيرة»[٣].

وعلى الرغم من هذا، فإنه يحدد انتمائه بشكل قاطع، بقوله: «إن الحقيقة هى أننى لست على أية حال من المحبين للجماعة «الصبارية» النقية، صبارية الرجال المنمقين

---

(١) Ibid, p.143.

(٢) الصبار: أورد جورج فريدمان عالم الاجتماع الفرنسى المعروف فى كتابه «أهى نهاية الشعب اليهودي»، الملابسات الاجتماعية والتاريخية التى صاحبت إطلاق تسمية «الصبار». يقول فريدمان: «إن ذلك المصطلح أخذ يتردد فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، مباشرة، وأنه استخدم للمرة الأولى فى مدرسة هرتسيليا الثانوية بتل أبيب، وهى مدرسة كانت تضم بين التلاميذ اليهود شباناً من مواليد فلسطين، إلى جانب الذين هاجروا مع آبائهم، والذين كانوا غالباً ما يتفوقون فى دراستهم على أولئك المولودين في فلسطين، بسبب قدومهم من حضارة أكثر تقدماً. وفى محاولة لتعويض الشعور بالنقص كان اليهود من مواليد فلسطين يلجؤون إلى الإمساك بثمرات التين الشوكى وتقشيرها بأيديهم، ويدخلون في مسابقات التقشير هذه مع أبناء المهاجرين، والتي عادة ما كانت تنتهى بأن يكسب أبناء اليهود من مواليد فلسطين فى هذا التحدى، ويتمكنون من نزع القشرة الشائكة ليحصلوا على الثمرة الحلوة. ومن هنا التصقت كلمة التين الشوكى «الصبار» بهذه الفئة من اليهود «مواليد فلسطين»، ثم انتشرت التسمية لتعطى ما يسمى بجيل «الصباريم» الذى أصبح يقصد به أولئك اليهود الذين ولدوا فى فلسطين، رغم تخلفهم الحضارى، إلا أنهم أكثر قدرة على تحمل المشاق. للمزيد راجع، الشامى، رشاد عبد الله (دكتور): عجز النصر، المرجع السابق، ص٤٧.

(٣) Eden, Vivian, Op. Cit., p.143.

السابقين لحرب (١٩٤٨)، فلست من جماعتهم»[١]. ويشير إلى انتمائه «لقد كنت أشعر دائماً بأنني جزء من أسرة كبيرة، هي يهود بولندا وروسيا»[٢].

ومن هنا كان الشتات اليهودي متأصلاً فى فكره وإنتاجه الأدبي، فيما بعد، علاوة على رواسب الأيام الأولى عندما حطت قدماه أرض فلسطين، وقد رصدت عيناه العرب وهم يحملونه برفق فى الميناء، ليبدأ رحلته الطويلة معهم فى فلسطين وإسرائيل.

ويروى ميجد معاناة أسرته كأسرة نازحة من الشتات إلى فلسطين؛ من أجل الإقامة والعمل، حتى عثر والده على فرصة عمل فى رعنانا[٣] فيقول:« وفى أحد الأيام اختفى والدى من المنزل (بتل أبيب)، ولم يتم إخبارنا نحن الأطفال بالمكان الذى ذهب إليه، ثم عاد بعد عشرة أيام، وكان البريق يشع من عينيه، حيث أخبرنا أنه جاب البلاد من أقصاها إلى أقصاها على قدميه، ومن العربات، وحتى عن طريق (الأوتوستوب)؛ لأنه لم يكن يملك المال اللازم لدفع أجرة الركوب، لدرجة أنه وصل إلى (كفار جلعادى) على الحدود اللبنانية، بحثاً عن وظيفة شاغرة كمدرس، حتى تمكن أخيراً من الفوز بوظيفة، وقبّلنا جميعاً «لقد وجدت وظيفة»، وقال لنا إن الوظيفة موجودة فى مستوطنة زراعية اسمها «رعنانا»، تبعد حوالي ١٥ كيلو متر شمال شرق تل أبيب، وأن هناك مدرسة على وشك الافتتاح، وأنه سيكون أول مدرس يعمل بها»[٤].

وهكذا انتقل ميجد مع أسرته للإقامة فى قرية رعنانا، ولم تكن البداية سهلة، ولكنها كانت صعبة وقاتمة بالنسبة لأسرة مهاجرة من الشتات البولندى. وعن هذه البداية

---

(١)בסר, יעקוב: שם, עמ'19.

(٢)מגד, איל: הוציאו על כולנו חוזה, אהרן, איל מגד, יחסים אחרים, מעריב השבוע, 23/ 8 – 29/ 8 / 1991, עמ' 29- 30.

(٣)وهى قرية صغيرة عبارة عن شارع واحد رملى طويل، تناثرت على جانبيه حوالى ثلاثين منزلاً وكابينة، ومن خلفها حظائر المواشى والدجاج، وكان يحيط بها الحقول وبساتين الحمضيات، وعلى التل إلى الجنوب الخيام السوداء لقبيلة أبو كشك (البدوية). أما ناحية الشمال فقد كانت هناك قرية عربية منازلها مصنوعة من الطين، وتحيط بها أشجار الصبار والتين(هذا الوصف لبدايات المستوطنة عندما أقامت بها أسرة ميجد فى سنوات هجرتهم الأولى (حالياً مستوطنة كبيرة)، للمزيد راجع، Eden, Vivian, Op. Cit., p.143.

(٤)Ibid, p.144.

المعيشية يقول ميجد: «استقللنا السيارة الخاصة بنقل المؤن إلى مخزن البقالة بالقرية، وتركنا متعلقاتنا القليلة على الرمال، وحملت أمى أختى الرضيعة على ذراعيها، وتابعتها عندما دخلت الكابينة المخصصة لنا، ورأيت الأرض المتربة والجدران المشققة، والحشرات، فخرجت وجلست على السرير، وأعلنت وهى تجهش بالبكاء أنها لن تعيش فى ذلك المكان. وكانت أمى «ليئة» عصبية المزاج، بطبيعتها وتلقائيتها، فإن كرهت شيئاً أو شخصاً فإنها تعبر عن ذلك تلقائياً بكلمات قاسية، أما والدى فكان رجلاً صبوراً، وكان يعتقد أن أى شيء يحدث يكون دائماً من أجل الأفضل. ومن ثم فقد أخذ يهدئ من روع والدتي، حتى دخلت الكابينة مرة أخرى. وأخذت تدلِّك الجدران بالكيروسين للقضاء على البق. وكانت المدرسة عبارة عن غرفة واحدة فى الكابينة المجاورة لنا، ولم تكن تحتوى إلا على مائدة وبعض المقاعد. وقد قام والدى بتدريس كل المواد لاثنى عشر تلميذاً، تراوحت أعمارهم ما بين السادسة والثانية عشر عاماً»(١).

وبناء على ما تقدم فقد قضى ميجد طفولته فى رعنانا، ثم التحق بالمدرسة الثانوية فى تل أبيب (جمنسيا هرتسليا)، وتخرج فيها. وخلال هذه المرحلة من شبابه انضم إلى إحدى المنظمات العسكرية الصهيونية «الهاجاناه»، ومن خلالها تعرَّف على الواقع السياسى السائد، آنذاك، وعرف الكثير عن الاستيطان وزعمائه، وكانت سعادته كبيرة عندما أنهى دراسته الثانوية: «أنهيت دراستى بالمدرسة الثانوية بتفوق، ولكننى لم أكن أحبها، لأنها كانت مغلقة بحواجز سميكة مع نظام صارم من التحكم، والسيطرة، والعزلة عن الحياة المتدفقة بالخارج. وعلى أية حال كنت سعيداً للغاية من بعض المدرسين الذين كانوا يلفتون انتباهى للعالم الكبير فى أعقاب الشعور بالفتور الذى كان يصيبنى فى حجرة الدراسة، وكان من بينهم بصفة خاصة مدرس اللغة الإنجليزية الذى علمنى قراءة شكسبير، وكذلك مدرس الرياضيات الذى وجهنى لموضوعات معينة، علمتني كيف أكتسب المعرفة، وأن أكون قريباً من الفلسفة»(٢).

وبعدها قرر ميجد الانخراط فى حركات الشباب، ومعسكرات المهاجرين، ولم

---

(١) Ibid, p.144.

(٢) Ibid, P.147.

يتمكن من الالتحاق بالجامعة بسبب مشاق العمل وقسوته فى مستوطنة جديدة، حيث يقول: «كانت السنة الأولى عبارة عن تدريب جماعى مع مجموعة مكونة من خمسة عشر فرداً من أعضاء الحركة، فى أكبر مستوطنة تحت الإنشاء، وهى «جبعت برينر»[(١)]، حيث كان هناك ألف فرد من مختلف التخصصات فى الزراعة، علاوة على بعض المصانع، وكان معظم هؤلاء الأعضاء قادمين من ألمانيا، وحاصلين على تعليم عال، وكانوا يعزفون مقطوعات لـ«باخ» و «بيتهوفن»، أثناء عملهم»[(٢)].

ومن خلال انخراطه فى تلك المعسكرات ولقائه بأنماط مختلفة من شتات اليهود على اختلاف آرائهم ومذاهبهم، تبلور فكره السياسى الذى انعكس فيما بعد فى أعماله الأدبية.

ويوجز ميجد هذه التجربة الشبابية، بقوله: «عندما كنت شاباً صغيراً فى سن مبكرة جداً، كنت منتمياً لمعسكرات المهاجرين، وعضواً فى كيبوتس. وكان «البيتاريم»[(٣)] الإصلاحيون بمثابة شيء شبه شيطاني، مخلوقات أخرى، أناس ذوى قرون، وكان لدينا

(١) Ibid, p.147.

(٢) جبعت برينر (تل برينر)، وقد سُميت هذه المستوطنة على اسم الأديب العبرى (يوسف حاييم برينر ١٨٨١-١٩٢١م). الذى لعب دوراً مهماً فى الأدب العبرى الفلسطينى، خلال العقدين الأول والثانى من القرن العشرين. وقد قتل فى اضطرابات ١٩٢١م، في حيفا على أيدى العرب فى فلسطين. وقد ساهم فى تأسيس الهستدروت. وكان أكبر المنادين بتصفية الدياسبورا (الشتات)، لحساب الاستيطان الصهيونى. للمزيد راجع، الشامى، رشاد عبد الله (دكتور): لمحات من الأدب العبرى الحديث مع نماذج مترجمة، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ١٩٨٤.

(٣) بيتاريم: (ברית יוסף תרומפלדר) (ميثاق يوسف ترومفيلدور). الذى قتل فى مستوطنة (تل حاى) عام ١٩٢٠م. وقد أطلق اسمه على منظمة رياضية، وعلى هذه المنظمة الصهيونية، وهى منظمة شباب خاصة بالصهيونية الإصلاحية التنقيحية، وهى تهدف إلى تثقيف الشباب عن الأرض والاستيعاب بتعليم صهيونى، علاوة على التأهيل العسكرى للدفاع الشخصي، وتنمية الروح الطلائعية، والخدمة التطوعية. أنشأ المهاجرون، عام ١٩٢٦، جماعة «منوراة» في «بتاح تكفا»، وبعد ذلك انخرطوا فى سرايا العمل فى «موشافوت» أخرى. لقد كانت الحركة تحت زعامة جابوتنسكى، حيث تفرعت الحركة فى دول أخرى فى الشتات، ففى عام ١٩٣١، أصبح لها فرع فى وارسو، وفى عام ١٩٣٤، أقام بيتار لأول مرة مركزاً للتعليم البحرى بايطاليا، ومركزاً للتأهيل الجوى بباريس ١٩٣٤، وفى جنوب أفريقيا ١٩٣٩، وفى نيويورك ١٩٤١. للمزيد راجع، The Zionist year book, 5727, 1966- 1967.

فى «رعنانا» التى كانت، آنذاك، مستوطنة صغيرة جداً، أحد البيتارين فى المدرسة، وكان هذا الشخص غير عاطفي، على الإطلاق، ومتكبراً، وقاسياً، وذا آراء متطرفة. وبعد ذلك عندما عدت للمدينة قابلت إصلاحيين من الجيل السابق، أكثر تقدماً فى العمر، وإذا بهم أناس طيبين كانت لديهم فى ذلك الوقت آراء مختلفة جداً عن آرائى، ولكنهم كانوا فى الحياة أناساً طيبين، وعندئذ قلت:« لم كل هذا؟ لماذا يتم تقسيم الناس وفقاً لوجهات نظرهم السياسية[١].

التحق ميجد بعد ذلك بالمستوطنة الاشتراكية «سيدوت يم»، ومن خلالها عمل فى ميناء حيفا فى الشحن والتفريغ، والتقى الكثير من العمال العرب وغيرهم. وأصبحت هذه المواقف لبنات فى ذاكرته، أظهرتها أعماله فيما بعد، وكان لها تأثيرها فى فكره السياسى، ورؤيته المتميزة للصراع العربي ـ الإسرائيلى.

دور ميجد فى إنشاء نواة «الشباب الطليعى» فى الشتات (الولايات المتحدة الأمريكية):

من خلال نشاط ميجد مع حركة الشباب، والعمل في المستوطنات، أوفدته الحركة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لإنشاء نواة الشباب الطليعى هناك:«فى عام ١٩٤٦م، أوفدتني حركة المستوطنات للولايات المتحدة مع مجموعة من خمسة مندوبين آخرين، لتأسيس حركة الشباب هناك، حيث تقوم الحركة بإرشاد أعضائها وتلقينهم عن حياة المستوطنات فى فلسطين، وكانت الحركة تسمى «الشباب الطلائعى החלוצים»[٢].

وعاد ميجد إلى تل أبيب، فى عام ١٩٤٨م، وأقام في «سيدوت يم»، حتى عام ١٩٥٠م، حيث استقر فى تل أبيب، وشارك فى تأسيس مجلة «ماسا» التى كانت تصدر كل أسبوعين، وتختص بشئون الأدب والنقد، وعمل محرراً بها، حتى عام ١٩٦٨م، حيث سافر إلى لندن للعمل مستشاراً ثقافياً لإسرائيل، حتى عام ١٩٧١م.

وفى الأعوام من ١٩٧١م- وحتى ١٩٨٥م، أصبح مشاركاً بعمود أسبوعى فى جريدة «دافار»، إثر عودته من لندن، بعد انتهاء عمله كملحق ثقافى هناك. هذا وقد أمضى ميجد

Eden, Vivian, Op. Cit., p.146.(١)

Ibid, p.146.(٢)

معظم فترة السبعينيات والثمانينيات في جولات خارج إسرائيل، لإلقاء محاضرات فى بعض الجامعات الأمريكية عن الأدب الإسرائيلى. ففى عام ١٩٧٧م، تم اختياره كاتباً فى مهمة علمية فى قسم اللغة العبرية بجامعة أكسفورد، وفى عام ١٩٧٩م، تم اختياره ليحاضر بالأكاديمية العبرية، ومن عام ١٩٨٠ – ١٩٨٧م، شغل منصب رئيس الجمعية الدولية للشعراء، والكتاب، والقصاصين فى إسرائيل.

وقد فاز ميجد بعدة جوائز، ففى عام ١٩٧٧م، فاز بجائزة بياليك، وفى عام ١٩٨٣م، فاز بجائزة (بريزنت تنس) من نيويورك، عن رواية «عسائيل» بمناسبة صدور ترجمته باللغة الإنجليزية . وفى عام ١٩٩١م، حصل على جائزة نيومان للأدب من جامعة بار- إيلان، علاوة على فوزه بجائزتى برينر وعجنون.

الإنتاج الأدبى لأهارون ميجد، ومصادر التأثير:

يرتبط إنتاج ميجد الأدبى ارتباطاً وثيقاً بنشأته، وبيئته، ودراسته، والظروف التي أحاطت به وبأسرته، فقد أحب الكتب منذ نعومة أظفاره، ومنذ أن تعلم القراءة، حيث كان والده يمتلك مكتبة غنية بكتب الأدب التى نهل منها، وكان لتشجيع المدرسين أثر بالغ فى حثه على القراءة، ومن ثم تنمية مواهبه الأدبية، التي غذَّاها وزادها العمل الذى مارسه فى المستوطنة، وفى ميناء حيفا فى الشحن والتفريغ، حيث يقول عن هذه الفترة:«كان العمل شاقاً جداً، إلا أنه كانت هناك أحياناً أوقات لم يكن لدينا ما نقوم به من عمل، حيث كنا نجلس فى انتظار سفينة متأخرة، ومن هنا كنا نجلس للراحة، وأنا أقرأ رواية يوليوس قيصر لشكسبير، أو فاوست لجوته فى ترجمتها العبرية. كانت هذه الفترة مليئة بالخبرات القوية، التي ترسخت داخلي بعمق، لقد أتاح لى ذلك العمل الدخول إلى عالم إنسانى حافل بالألوان والأنماط البشرية العديدة والمختلفة، وكذلك بجماعات إنسانية مختلفة، تماماً، عن تلك التي عرفتها في طفولتي، حيث التقيت العمال العرب، واليهود، والموظفين، ورجال الشرطة البريطانيين المسيطرين على أرصفة الميناء، والمشرفين على العمل من الشركات الكبيرة ومع البحارة من والدنمارك، وفنلندا، واليابان، ومصر، وروسيا. وفى ذلك الوقت، وبعد اندلاع الحرب فى أوروبا، بدأت القوارب المحملة بالمهاجرين هرباً من بطش النازى، تصل إلى الميناء، وكان وصولها

غير قانونى؛ لأن قوانين الانتداب البريطانى كانت مقيدة للهجرة إلى فلسطين»[١].

بدأ ميجد أعماله الأدبية بنشر مجموعة قصصية بعنوان «روح البحار»، عام ١٩٥٠م، وهى المجموعة التى كشفت عن موهبته وبراعته فى هذا الفن الأدبى، ثم تلاها بعد ذلك العديد من الأعمال الروائية الطويلة التى تعدت عشرين عملاً، حيث ترجم العديد منها إلى لغات أخرى، كما عرض بعضها على المسرح، علاوة على مجموعة من المسرحيات تعدت عشر مسرحيات، وقد كتب قصصاً للأطفال، وترجم العديد من الأعمال الأدبية العالمية للعبرية، وله عدة مقالات متنوعة فى مجالات شتى.

ومن أهم رواياته التى تناولت الشتات اليهودى رواية «فويجلمان»، وقد عرضت كمسرحية تاريخية على مسرح اليديش بتل أبيب، عام١٩٩١م. وسوف نتناولها بالبحث والتحليل لرصد قضايا الشتات اليهودي، من خلال أحداثها.

بعد عرض رواية «فويجلمان» على مسرح اليديش بتل أبيب، أجرى الصحفى والأديب والشاعر، أيال »، الابن الأكبر لأهارون ميجد»، حواراً صحفياً مع والده ميجد على صفحات الملحق الأسبوعى لجريدة «معاريف»، قال فيه ميجد:«هذه رواية حزينة جداً تتحدث عن عالم جميل اختفى، إن جهود الناجين من الشتات للأخذ بأسلوب الحياة هنا (إسرائيل)، هو بمثابة مجهود ميئوس منه، إنك تشاهدهم حولنا، «الناجون من أحداث النازية، فى كل مكان ترتاده نجد أن بهم جرحاً، جرحاً صارخاً، فعندما انتهيت من كتابة رواية «فويجلمان» قلت لنفسى :« هذا هو المطلوب، قلت هذا هو الذى يعنينى، وتلك هى وصيتى، وهذا الذى أرغب فى بقائه .... إن هذه الرواية تتضمن ..... رواسب عاطفية وعميقة جداً عن ارتباطى بالشعب اليهودى (الشتات)؛ لأنه هو الارتباط المهم جداً بالنسبة لي»[٢].

وهكذا، فإن ميجد يؤكد بالفعل فى هذه الرواية على الارتباط بالشتات اليهودى وبثقافته، وتعكس الشخصيات الرئيسية فى الرواية بانتماءاتها الثقافية المختلفة مضمون الرواية الذى يتشعب لمناقشة وتناول العديد من القضايا، ذات الصلة بالشتات اليهودى،

(١) Ibid, p.149.

(٢) מגד, איל: שם, עמ'30.

وحاضر ومستقبل إسرائيل.

شخصية فويجلمان:

هي الشخصية المحورية في الرواية، حيث تدور أحداث الرواية كلها حول تداعيات، وسلوك، وتخبطات، وعلاقات تلك الشخصية. فهو شاعر يكتب باليديشية، نشأ وترعرع في الشتات اليهودى في بولندا، ويعد من الناجين من «أحداث النازية»، وكانت بداية علاقته بإسرائيل مع «تسفى أرييل» (أستاذ التاريخ بجامعة تل أبيب)، والذي يطلب مساعدته في نشر كتابه المكتوب باليديشية في إسرائيل، وذلك بعد ترجمته للعبرية حتى يتيح للعامة قراءته.

ومن خلال تلك العلاقة تنشأ عدة مشكلات، منها معارضة «نورا» (زوجة أرييل) لمجرد العلاقة بينهما، لأنها ترفض، تماماً، الشتات اليهودي والماضي اليهودي، واليديشية، وكل ما يتعلق بذلك، لأنه يجلب لها الأحزان ويتعارض مع خطها الاجتماعى والسياسى الرافض لأحزان الشتات اليهودي، بكل سلبياته، وتدعو للتعامل مع الواقع والعيش في الحاضر والمستقبل.

شخصية «نورا»:

تعمل باحثة في معمل بيولوجى، وتعيش الواقع الجديد، وترفض الماضي برمته، ولها وجهة نظر إنسانية تجاه الماضى اليهودى، فترى أن هناك إيجابيات ومحاسن في مقابل مساوئ وسلبيات. إنها ترى أنه إذا كانت قد حدثت إبادة لليهود على يد النازى، فإن هذا لا ينفى أن بعض الألمان قد ساعدوا عدداً من اليهود، وأنقذوهم بإيوائهم في مساكنهم، وإطعامهم، والمساعدة في نجاتهم. إذن، فالموضوع كله من وجهة نظرها موضوع إنساني بحت. وترى ضرورة العيش في سلام مع الحاضر.

وترى نورا أن جذورها تكمن في إسرائيل، وليس في الماضى والشتات اليهوديين، كما أنها تقف ضد «فويجلمان» وتوجهاته على طول الخط. وهكذا فإن الأسرة المكونة من الأب «تسفى أرييل»، والزوجة، تعيش في حب ووئام إلى أن زارهما «فويجلمان»، وأقام في شقتهما، وبدأ يتدخل في حياتهما لدرجة أن «نورا» غادرت المنزل وسافرت للقدس. ومن هنا كانت بداية التناقضات والخلافات الأسرية، التي أدت في النهاية إلى

وقوع نورا فى هاوية الخيانة الزوجية، وبعدها تخلصت من حياتها بالانتحار.

«تسفى أريبل»:

يقوم بتدريس التاريخ بالجامعة، وله أبحاث، ومقالات، وكتب في التاريخ اليهودي، أيضاً، وهو صديق للشتاتى اليديشى «فويجلمان»، حيث تحمل عبء ترجمة كتابه من اليديش إلى العبرية، وتحمل هذا العبء بدءاً من البحث عن المترجم المناسب، وحتى ظهور الكتاب بالعبرية، متحملاً النفقات المادية لإخراجه إلى حيز النور. وكانت النفقات المادية التى تحملها «أريبل» هى إحدى الخيوط الدرامية فى زيادة حدة الخلاف بينه وبين زوجته «نورا»؛ لأن حسابهما فى البنك كان مشتركاً. وقد اضطر أريبل لسحب مبالغ كبيرة لتغطية نفقات ترجمة ونشر كتاب «فويجلمان»، وهو ما كانت ترفضه نورا، تماماً، شكلاً وموضوعاً، لأنها كانت ترفض فويجلمان لا لشخصه، ولكن كرمز للماضى اليهودى وما يحمله فى طياته من أحزان ومآس لا ترغب حتى فى مجرد اجترارها.

ومن الشخصيات المهمة فى الرواية «أروينج» (وهو نجل بطل الرواية) فويجلمان، وهو شاب يعشق الغرب والعلم والحضارة الغربية، ولا يعترف بدولة إسرائيل وسياستها مع جيرانها، ويرفض حتى مجرد الجماعة اليهودية التى ينتمى إليها والده، التي جاء يبحث عنها فى دولة إسرائيل، ويرفض الحروب التى خاضتها وتخوضها مع جيرانها، مما جعلها مفتقدة للأمن، والسلام، والحياة الطبيعية الهادئة، وهذا ما جعله يرفض التواجد فى إسرائيل، سواء هو أو والده فويجلمان. ويوجه سؤاله باستنكار، قائلاً: « ماذا يوجد عندكم هنا؟» (إسرائيل) حروب ، حروب، إن العسكريين عندكم بالطبع عندما عبروا الليطانى(حرب لبنان) اعتبروا أنفسهم وكأنهم قيصر عندما عبر نهر روبيكون. قلت : إن اجتياح لبنان بالتأكيد كان خطأ، حسب علمى. ويوجز الناقد الإسرائيلى «جرشون شاكيد» كل الخيوط المتشابكة والمتنافرة والآراء المتباينة حول الشتات وعلاقاته بإسرائيل، من خلال الدراما العائلية، وأسرة أستاذ التاريخ «أريبل»، وزوجته نورا ، بقوله: لقد حاول المؤلف فى رواية «فويجلمان» أكثر مما فى رواياته الأخرى فهم الجوانب المختلفة للتراجيديا، فهو يعلل ويشرح أسباب انتحار «نورا»، وما كرهته ورفضته، وكان من بين ما علله وذكر أسبابه ، تلك العلاقة الغريبة بين «أريبل»

رجل التاريخ الإسرائيلي وبين «فويجلمان» شاعر اليديشية. كل الأشكال والأوجه لها أسبابها من جانب شخصي، فـ«نورا» ووالداها ألمانيان، وزوجها «أريل» ووالداه طلائعيان، وماضي «فويجلمان» بين المعسكرات وتأثير ماضي الأب على الابن المندمج مع الغرب والمتباعد عن اليهودية، إن تلك الرواية قريبة للروايات النفسية الدرامية»[(١)].

ومن هنا، تبدو الغاية واضحة وناصعة من وراء هذه الرواية، حيث يؤكد المؤلف على انتمائه وحبه للشتات، وأن هذه الرواية تعبير عن هذا كله، وقد عَبّر عنه بنجاح لكونه شتاتياً، وقد ساعدته تجربته الاجتماعية[(٢)] على هذا النجاح.

الشتات اليهودي في فكر ميجد واتجاهاته السياسية تجاه الصراع العربي - الإسرائيلي:

حول الصراع العربي - الإسرائيلي، يقول: «في الواقع، إنه من المهم أن نتحدث مع الفلسطينيين، ونتحدث مع من يختارونهم، إذا اختاروا أشخاصاً من منظمة التحرير الفلسطينية، يكون الحديث معهم. لا يجوز لنا أن نمنح أنفسنا حق الاختيار نيابة عنهم. ستكون النتيجة في نهاية الأمر، أياً كانت، هي تقسيم الأراضي، ومنها ما يخص السكان اليهود القدامى «اليشوف»، وإذا كان من حق اليهود العيش في شتى أنحاء العالم «الشتات»، فلماذا لا يعيش اليهود في الخليل، أيضاً، تحت سلطة فلسطينية، إن الحل الكونفدرالي يبدو لي واقعياً»[(٣)].

---

(١)שקד, גרשון: שם, עמ'291.

(٢)التجربة الاجتماعية هي التي يستقيها الأديب أو الشاعر من محيطه الاجتماعي أو الإنساني المعاصر، وهو في تصويره لهذه التجارب يعتمد على الملاحظة والخيال، كما يعتمد على قراءة ما صوره الأدباء الآخرون من تلك التجارب، وليس من الضروري أن ينغمس فيها بشخصه، لكي يحسن تصويرها فلربما كان نظره إليها عن بعد أدعى إلى تصويب ملاحظته وشمولها. كما أنه قد يستطيع بخياله أن يتصور الواقع، وأن يجسده على نحو يبرز الحقيقة. للمزيد راجع، مندور، محمد(دكتور): الأدب ومذاهبه، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٨.

(٣)הדרי, רמגּ: עם אהרון מגד, לכבוד יום העצמאות , ידיעות אחרונות, מוסף לשבת , יום 23/ 9/ 1991, עמ'17.

وإذا كان هذا هو اتجاهه السياسى منذ إعلانه صراحة، عام ١٩٩١م، نجده بعد عشر سنوات، تقريباً، يعلن عن رفضه لما يحدث فى الشارع الإسرائيلى من مناخ سياسى لا يقبله. ففى ٣٠/ ٦ / ٢٠٠٠ ، نشرت له صحيفة «هاآرتس» مقالاً تحت عنوان «الكاتب أهارون ميجد يتحدث عن الضغط الذى يمارس من أجل دعم اليسار»، حيث جاء فيه «يسود الأوساط الفكرية من كتاب، وفنانين، وصحفيين، مناخ شعاره (إما أن تكون معنا أو ضدنا)، فلا توجد منطقة وسط فى إدراكهم». وفى وقت من الأوقات كان أى شخص يعمل بمجال الفن والترفيه أى ممثل أو موديل ناشئ يريد أن يحسب على اليسار، كان يعلن قائلاً «إننى معجب بأعمال يشعياهو ليبوفيتش»، وكأنهم اهتموا يوماً بقراءة أحد كتبه، ذلك أن الإعجاب بأعماله كان يضمن للشخص انضمامه للزمرة المنغلقة على نفسها، ويبرزه كجزء من القبيلة، بعد ذلك أصبح المعيار درجة كراهية الفرد لنتنياهو، إذا ما تفوهت بشيء جيد عن المستوطنين، ولم تجار النظرة المتقبلة بأنهم مجرد فاشيين، فسوف يصرخون فى وجهك، على الفور، بأنك غيرت انتماءك إلى اليمين، وأنك أبله، وأنك الشر مجسماً. وهذا ما لا يمكن أن أقبله. «إن الموقف فى إسرائيل معقد للغاية، بحيث لا يدرى أحد ما هو الحل الصحيح.» إننى أتفاعل مع السياسة كما أتفاعل مع الناس « فأنظر إلى كل موضوع من حيث أبعاده وسماته الإيجابية. إننى أرغب فى أن أجد بالسياسة ما أبحث عنه بداخل الناس، أود أن أجد الأمانة والنزاهة، ولكننى لا أجد إلا الكراهية والغوغائية(١).

وتحت عنوان (الدولة اليهودية فى الخمسين عاماً القادمة)، كتب ميجد مقالاً فى مجلة (ايذور)، حيث تطرق إلى الشتات اليهودي، والصهيونية، والدولة، والصراع العربي ـ الإسرائيلي: «إن المؤرخين الجدد(٢) يقدمون الدعم الأيديولوجى لهؤلاء الذين

---

(١) Author Aharon Megged on pressure to support left, Ha'aretz. June. 30/ 2000. http://www.cdn.friends./cej.ca/isreport.

(٢) ارتبط ظهور هذه المجموعة بتغييرات وتطورات شهدتها الساحة الإسرائيلية، منذ السبعينيات والثمانينيات، بما اصطلح على تسميتها « ما بعد الصهيونية». وقد نشروا كتبهم الانتقادية فى الخارج، وباللغة الإنجليزية، فقد أصدر آفى شلايم (أحد المؤرخين الجدد، من مواليد العراق وهاجر إلى إسرائيل، ثم استقر فى بريطانيا، ويعمل حالياً أستاذاً فى جامعة أكسفورد)، كتابه تحت عنوان «فيما وراء نهر الأردن، الحركة الصهيونية وتقسيم فلسطين»، فى لندن، وبالإنجليزية عن دار نشر أكسفورد، فى عام ١٩٨٨م، لصعوبة نشره فى=

يغادرون إسرائيل، وتنتشر آراؤهم ليس فحسب، بين الأوساط العلمية، ولكنها تتخطى مجالها لتنتشر بين اليائسين من الصهيونية الذين يشعرون بالمرارة تجاه سياسة الحكومة، أو يبحثون عن مبرر فكرى للهاجس الخفى لديهم بأن يزيلوا من الوجود الدولة بأكملها. وأيا ما كانت هذه نية المؤرخين أو لا، فإن خلاصة تعاليمهم بأنه ليست الدولة فحسب، بل والصهيونية ذاتها قد وُلدت من الخطيئة. فإنها لم تكن حركة لتحرير الشعب اليهودى كما كانت تعتقد، لكنها كانت حركة لقمع شعب آخر، هو الشعب العربي، وجرائمها لم تبدأ بالاحتلال، عقب حرب يونيو (١٩٦٧م)، والإخفاق في إعادة الأراضي المتنازع عليها لأصحابها الأصليين، وسحق سكان هذه الأرض بكل قسوة، لكنها، ومنذ أيامها الأولى، قامت بارتكاب السرقة، والطرد، والانتهاك، والقمع، كما مارست الخداع للسيطرة على الأراضي، التي لا تملك الحق فيها. ووفقاً لهذه الفلسفة، مزق شبح الاستيطان اليهود. وبهذا فإن محيط هذا النشاط الذى لا يحمل أى صبغة أخلاقية، يضيق، أكثر فأكثر،مع نشر مزيد من الدراسات. لقد بلغت الأمور حد أن ظهر عمل أخير يدعى أن حتى مركز تل أبيب يستند على أرض أخذت بالخداع من أصحابها العرب. وهذا فى جوهرة هدم لشرعية الصهيونية، ليطابق بذلك الميثاق الوطنى الفلسطينى الذى ينكر حق إسرائيل فى الوجود، والذي يستند، بشكل أو آخر، على هذه الحجج»[1].

وبعد تشريح مشكلة النازحين من إسرائيل إلى الشتات، وعرض أسباب ذلك، يستشرف ميجد المشاكل المستقبلية للقادمين من الشتات، وعدم انصهارهم فى الدولة.

=إسرائيل؛ لأنه يوجه اتهامات قاسية إلى الزعامة الإسرائيلية، وحمّلها فيه مسئولية النكبة التى لحقت بالعرب وبالإسرائيليين أنفسهم، على حد سواء، بسبب السياسات الإسرائيلية الرسمية. ويتفق المؤرخون الجدد فى الرأى على أن إنشاء الدولة، عام ١٩٤٨م، قام على خطأ واضح، وأن كل ما أقيم على الخطأ يتحتم تصويبه وتصحيحه. ويرى المؤرخون الجدد أن الدولة لم تؤد إلى تحقيق الهدف المنشود لإقامتها، ويرون كذلك أن الحركة الصهيونية انتهى دورها بعد قيام الدولة، وأنه من الضرورة عادة كتابة تاريخ إسرائيل والحركة الصهيونية والصراع العربي ـ الإسرائيلي بصورة محايدة. للمزيد راجع، شبتاى شبت، المؤرخون الجدد، هاآرتس، ٧/ ٤/ ١٩٨٩م.

(1)Aharon Megged, The Jewish state , the next fifty years, Azurt, winter 1999, p.1.

فيقول:«إن مشكلة إسرائيل المصيرية فى الأعوام القادمة لن تكون الفجوة المتزايدة بين العلمانيين والمتدينين، ولا بين الأغنياء والفقراء أو حتى نتيجة الانقسامات العرقية أو السياسية، لكنها ستكون مشكلة إحراز السلام. فإذا تحقق السلام مع العرب ـ جيراننا داخل وخارج حدودنا ـ فإن كل هذه المشكلات والتى تعد عادية وطبيعية بالنسبة لدولة صغيرة من المهاجرين، سوف تجد حلولاً لها، إن آجلاً أو عاجلاً، كما يحدث فى أى دولة ديمقراطية، عادية وطبيعية. وعلى الجانب الآخر، إذا لم يتحقق السلام، واندلعت الحرب مجدداً وتسببت فى إلحاق الخراب، والدمار، وإراقة الدماء، بدرجة لم تشهدها الحروب السابقة ـ فإن بقاءنا (إسرائيل)، واستمرارنا فى الوجود سيكونان محل شك»[(١)].

ويقول:« ومع مرور، خمسون عاماً، على إعلان«دولة إسرائيل» اتضح أن هذا الأمل كان أملاً زائفاً. فصحيح أن هذا المركز الإقليمى قد أصبح أقوى، وأصبح حقيقة سياسية، واجتماعية، وثقافية، لا يمكن إنكارها، ولكن فى الوقت ذاته. لم يتمكن، وليس من المتوقع أن يتمكن، من محو المراكز اليهودية فى الشتات. فاليوم أيضاً يمكن لأغلبية يهود الشتات أن يطرحوا وبكل صدق وإخلاص أن أعينهم «تحدق تجاه صهيون»، ولكن الشعب الذى يوجد مركزه السياسى فى صهيون، مازال فى الوقت ذاته شعباً عالمياً (شتاتياً)»[(٢)].

وعليه، فقد عرض ميجد قوة الشتات اليهودي، في مقابل عدم شرعية المركز (إسرائيل)، وواقعة، ومشاكله، والإحساس بسلبية الصهيونية. ومن هنا، أصبحت ظاهرة النزوح من إسرائيل لها مبرراتها الأخلاقية، والسياسية، والعلمية، وأصبح النزوح يتم دون خجل كما كان فى الماضى. وحول ذلك نجد ميجد يعرضه ببساطة، بقوله:«ما كان يعرف خلال فترة الخمسينيات بـ « تسلل» الأفراد للدول الأخرى، ويشار إليه فى الستينيات والسبعينيات باعتباره «تصرف حثالة البشر» (النزوح). كان يدفع أى شخص يغادر، إلى الاختباء، وأن يشعر بالخجل، أو أن يبحث عن مبررات غريبة لسلوكه، هذا متعهداً دائماً وأبداً بالرجوع. هذا وقد أصبح فى الأعوام الأخيرة ليس فحسب، شيئاً لا يدعو للخجل، ولكن الآن يمكن أيضاً، أن يقوم به الشخص بافتخار ورأسه مرفوعة.

(١) Ibid, p.2.

(٢) Ibid, pp.2- 3.

ولذا نجد صحيفة إسرائيلية تنشر تحقيقاً أجرى مؤخراً مع شباب متعلم وميسور الحال، ومن أسر راقية، حيث أعلن هؤلاء أنهم قد قرروا وبدون تردد مغادرة إسرائيل، فكما يقولون، فإن إسرائيل قد تسببت فى إصابتهم بالإحباط، أو أنهم قد اكتشفوا فرصاً أكبر للنجاح فى أماكن أخرى. لذا فإن من أكبر المخاطر التى ستواجهنا خلال الأعوام القادمة، خطر النزوح من إسرائيل. فسوف يضعف ذلك المجتمع اليهودى بإسرائيل، من الناحية الديموجرافية والاقتصادية، وفى المحصلة النهائية من الناحية الاجتماعية كذلك. وأحد الأسباب المتداولة الشائعة مؤخراً، والتي يقدمها هؤلاء النازحون الأذكياء هو التبرير الأيديولوجى أو على الأقل السياسى:« إن هذه البلاد لم تعد بلادنا بعد الآن»، وذلك يعنى شيئاً بالغ التحديد:ـ أن البلاد (إسرائيل) فى ظل الحكومة الحالية لم تعد بلادنا بعد الآن. وهذه حجة إسرائيلية متفردة إذ لن تجدها بسهولة بهذا المعدل، وسط حجم سكان كالذى بإسرائيل فى أى لغة، أو أمة أخرى»[1].

وفى هذا الجزء من المقال «الدولة اليهودية فى الخمسين عاماً القادمة»، يربط ميجد بين الشتات اليهودى على مدى التاريخ، وعلاقته بالوضع الحالى، ومصير ومستقبل إسرائيل، فيقول:« نبوءة بلعام الآرامى الذى طُلب منه أن يصب لعنته على إسرائيل، وهو فى طريقه من العبودية بمصر إلى «أرض الميعاد»، ولكن انتهى به الأمر إلى أن منحهم مباركته، (سوف ينال البركة من تباركه، وتنزل اللعنة على من تلعنه « عدد ٢٢/ ٦).

كانت نبوءة غامضة على الرغم من كل شئ ـ ربما مباركة، وربما لعنة. وهناك الفقرة التى تقول:« هؤلاء القوم سوف يعيشون بمفردهم »، ولن يعترف بهم بين الأمم (عدد ٢٣ / ٩)، تتضمن رؤية مذهلة تفوق التصور عن المصير الفعلى لهذا الشعب، على مر أجيال، لا تعد ولا تحصى.

فعلى مدى آلاف السنين، أقام هؤلاء الناس بمفردهم بالفعل، مختلفين عن باقى الشعوب، ويفصلهم عن الآخرين حاجز يصعب اجتيازه، فدينهم يختلف عن المسيحية، والإسلام، والبوذية، وغيرها من الأديان، فإنه منغلق على نفسه مقصور على أصحابه، فلا يشاركهم فيه غيرهم.

---

(١) Ibid, p.3.

وجملة «ولا يعترف بهم بين الأمم»، يمكن أن تقرأ بطريقتين:ـ الأولى لم يتم الاعتراف بالشعب اليهودى بين الأمم، والثانية لم يعترف هو بهم، سواء عندما كانوا متفرقين (مشتتين) بينهم (إذ رفض أغلبية اليهود أن يذوبوا فى هذه المجتمعات، وأن يتم استيعابهم، كما أن القلة التى حاولت ذلك فشلت)، أو عندما أصبحوا شعباً (فى فلسطين)، (وتعليق بن جوريون المليء بالفخر والعجرفة بأنه (لا يهم ما يقوله غير اليهود، لكن المهم ما يفعله اليهود، يعد تعبيراً صارخاً عن هذه النظرة)، وصفة الآخر التى تميز الشعب اليهودى ـ إذا شئت فلتقل صفة التفرد ـ قد لازمته على طول تاريخه، حتى وكأنه يبدو أن تفرده وتميزه تم دفعه عند مولده. فعلى سبيل المثال ملاحم الأمم القديمة الأخرى، مثل البابليين، والمصريين، والإغريق، والرومان، وغيرهم، ملاحم حرب وبطولة، بخلاف ملحمتنا فهى ملحمة تجوال وشتات، بدأ مع الأمر الإلهى (اذهب وتحرك من حران إلى كنعان)، وامتدت لألف عام، ونهايته لا تبدو فى الأفق[1].

ويستعرض ميجد فى مقاله (الدولة اليهودية فى الخمسين عاماً القادمة) أبدية الشتات اليهودى منذ القدم، وحتى اليوم، فيقول:« لقد هبط يعقوب إلى مصر مع أبنائه، فحتى بعد الاستقرار فى «أرض الميعاد»، استمرت هجرة الإسرائيليين إلى الأراضى الأخرى، وليس بالضرورة نتيجة للطرد أو الإبعاد. وخلال فترة الهيكل الأول، كان أفراد شعب إسرائيل قد قاموا بالفعل ببناء مواقع للاستيطان بمصر، وبغيرها من أراضى الشرق الأوسط. وبعد إعلان قورش، قامت نسبة ضئيلة من الشعب، وليس من نخبته، بانتهاز الفرصة للعودة إلى «الوطن». وفى فترة الهيكل الثانى، قبل تدميره، ونفى الشعب، بوقت طويل، ارتحل اليهود من فلسطين إلى آسيا الصغرى، واليونان، وروسيا، وأسبانيا، حتى أنهم وصلوا لحدود بعيدة فى فارس، والهند، ومرة أخرى مصر، حيث قاموا بإقامة مراكز دينية مهمة بهذه الأماكن، تجاوز بعضها بمراحل ـ مثل بابل ـ ما بلغه المركز اليهودى بفلسطين، من الناحيتين الروحية والاقتصادية. وخلال القرون التى شهدت الشتات اليهودي، في جميع أنحاء العالم، قليل جداً من هاجر إلى فلسطين، حتى عندما كانت تواتيهم الفرصة. ولكن طوال ما يزيد عن الألفى عام، فإن كلمات من قبيل (عسى أن

(١) Ibid, p.4.

تشهد أعيننا عودتك لصهيون)، أو (يارب أعد بناء الهيكل)، أو (فلنكن بالقدس العام القادم)، وغيرها الكثير من التعبيرات المشابهة، لم تتوقف عن الترديد فى الصلوات، طوال أيام الأسبوع، وفى الأجازات، صباحاً، وظهراً، ومساء. فهناك ازدواجية ليس لها نظير لدى أى شعب آخر، مزروعة بمصير وشخصية هذا الشعب. فهذه الأمة ينحصر تركيزها فى ناحية من أرض واحدة، وكل صلواتها، ودعواتها، وقوانينها الدينية، وآمالها في الخلاص، وشوقها في أشعارها ترنو لهذه الأرض، وفى الوقت ذاته، تعتبر نفسها شعباً عالمياً، ذلك العالم الذى أجبرت فيه على التمزق، والشتات، وتعرضت للكراهية والاضطهاد. لكنه بالرغم من ذلك عالم يبدو وكأنها تشعر نحو وجوده وأخلاقه بالمسئولية، فتهرول للانضمام إلى طليعة كل حركة اجتماعية، وأيديولوجية، وثقافية. وكانت الصهيونية السياسية تأمل فى أن تنهى هذه الازدواجية بشكل لا رجعة فيه»[١].

ثانياً : أهارون أبيلفيلد ورواية «حفرة الثلج» (١٩٩٧):

وُلد أهارون أبيلفيلد، فى عام ١٩٣٢م، فى (تشرنوفيتش – رومانيا)، وأثناء الحرب العالمية الثانية ـ وكان يبلغ الثامنة من عمره ـ أُخذ إلى أحد المعسكرات (تراندنستاريا)، ولكنه تمكن من الهرب، وقضى ثلاثة أعوام مختبأ فى أوكرانيا، قبيل انضمامه للجيش الروسى[٢]. وباعتباره لاجئاً، في فترة ما بعد الحرب، تمكن من الوصول إلى إيطاليا، ومنها هاجر إلى فلسطين، في عام ١٩٤٦م.

التحق أهارون بصفوف الجيش الإسرائيلى، كما درس الأدب العبرى والييديش بالجامعة العبرية، وتخرج فيها، ويعمل حالياً أستاذاً للأدب العبرى بجامعة بن جوريون بالنقب. بدأ أهارون فى نشر كتاباته، عام ١٩٥٩م، وهو كاتب قاص يكتب القصة القصيرة والروايات، علاوة على المقالات، وقد ترجمت أعماله للعديد من اللغات المختلفة[٣].

(١) Ibid, pp.5- 6.

(٢) Aharon Appelfeld (1932), Jewish virtual library a division of American – Israeli cooperative enterprise, http://www.us.isr aelorg. isouret biography/Appelfeld.html.2003,p.1

(٣) Ibid, p.1.

وقد نال أهارون عدداً لا حصر له من الجوائز القيمة عن أعماله فى إسرائيل، كان منها جائزة رئيس الحكومة للإنتاج الأدبي، عام ١٩٦٩م. هذا وتلاقى أعماله الأدبية تقديراً نقدياً، في الداخل والخارج. فأعماله الأدبية معروفة على المستوى العالمى، باعتبارها من أعمق الأعمال الأدبية تعبيراً عن «الهولوكوست» ، وتلاقى أعماله استحساناً وتقديراً عالمياً على مستوى الجماهير والنقاد، فهو من أبرز الكتاب الإسرائيليين وأكثرهم انتشاراً فى الشتات، وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية[١].

وقد صدرت عن أبيلفيلد دراسة مهمة قدمها «إيجال شفارتز» (مدير مركز بحوث الأدب اليهودى والإسرائيلى والثقافة بجامعة بن جوريون بالنقب)، تعتمد على لقاءات أجريت معه شخصياً[٢].

«وتدور هذه الدراسة حول ثلاثة من أكبر وأهم المحاور والموضوعات عند الأديب أبيلفيلد، حول استعادة الطفولة والذاكرة، وخلق الكاتب والموقف الدينى لكاتب «الهولوكوست»، ومن خلال هذه الدراسة فإنه يطور رؤية جديدة ليس بتحفظ عن أعمال أبيلفيلد، ولكن عن أدب «الهولوكوست» ذاته، أيضاً. فإنه ينظر إلى أبيلفيلد ككاتب «هولوكوست»، تشغله هواجس تتخطى تجربته الشخصية كأحد الناجين من «الهولوكوست»، لتشمل موضوعات وقضايا أكبر من الهوية اليهودية، في العصر الحديث»[٣].

مصادر التأثير فى إنتاج أبيلفيلد:

من المعروف أن جذور الأديب، وبيئته، وتجربته الشخصية هى المحاور الأساسية لتشكيل إنتاج الأديب، وفكره، ورؤاه، ومدى تواصله مع المتلقين منه.

وهنا تتركز محاور التأثير على إنتاج أبيلفيلد، فى مسقط رأسه فى الشتات، وفى تجربته الشخصية، ما بين المعسكرات، والحرب، والهرب، ثم الهجرة.

(١) Ibid, p6.

(٢) Aharon Appelfeld, From individual lament to tribal eternity «tauber institute from the study of European Jewry , Yegal Schwartz, 2001, p.1

(٣) Ibid, p.3.

ثم تأتى بعد ذلك دراسته لتكتمل عوامل التأثير، وتلون إنتاجه بخصوصية فريدة للتعبير عن « أحداث النازية»، والناجين منها، وانتشار أعماله بشكل موسع فى الخارج، وترجمتها للعديد من اللغات الأجنبية، وأصبح إنتاجه مدموغاً بالتعبير عن «الهولوكوست»، ومواطنه، ومعسكراته.

ومن أهم أعماله التى تناولت الشتات، والمعسكرات، ومطاردة اليهود، ثم نجاة بعضهم، وهجرته، رواية «حفرة الثلج ١٩٩٧»، والتي سوف نتناولها بالبحث والتحليل. وأبطال هذه الرواية مجموعة من اليهود من مختلف المهن والوظائف فى الشتات، حيث يجمعهم أحد معسكرات الاعتقال، إبان الحرب، ثم عودة من بقى منهم على قيد الحياة، إلى مسقط رأسه، حيث كان يقيم وأسرته. ثم تبرز المواقف النفسية لهؤلاء الناجين، من خلال براعة الكاتب فى تصوير ما يدور بخلدهم من مشاعر الخوف والقلق على المستقبل.

وتناقش الرواية بموضوعية وواقعية أسباب زيادة عدد القتلى اليهود فى معسكرات الاعتقال، وأن هذه المعسكرات لم تكن مقصورة على اليهود وحدهم.

رواية حفرة الثلج ١٩٩٧م، الأبطال والأحداث:

«إن أبطال (أهارون أبيلفيلد) مروراً بتجربة أحداث النازى يسيطر عليهم ماضيهم، إن آجلاً أو عاجلاً، ودولة إسرائيل لا تغير مضمون هؤلاء الرجال، وليست ملجأ آمناً فى مواجهة المصير اليهودى المحدد سلفاً، وهم يأخذون الشخصية المثقلة بالماضى معهم. حيثما يذهبون والمستقبل والماضى ليس إلا حلقة مفرغة واحدة، لا مجال للتخلص منها»(١).

«تدور الرواية حول موضوع تتحدد نهايته فى بدايتها ، ليس فى الصفحة الأولى، ولكن فيما قبلها، بإهداء رواية «حفرة الثلج» لوالد المؤلف ميخائيل أبيلفيلد الذى بنى الجسر فوق نهر البوج. لكن ميخائيل أبيلفيلد، ليس هو فحسب، اسم والد المؤلف، ولكنه اسم

(١) الشامى، رشاد عبد الله (دكتور): تفكيك الصهيونية فى الأدب الإسرائيلى، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٥٦.

ابنه أيضاً، الذى يسمى ـ مثلى ومثل الكثيرين من أبناء جيلى ـ على اسم جده ـ فيما يخص أبيلفيلد وكثيرين مثله، النهاية الحقيقية لرؤية هى باستمرار الواقع هنا ـ مع العهد الجديد الذى يحمل أسماء من هناك بأمل ـ ربما أمل مفرح ـ حيث يكون متعلقاً بصورة أقل بالخلافات التى تهدد بالاندلاع بين يهودى ويهودى آخر، وبين إنسان وإنسان، أيضاً، ضمن أحداث هذه الرواية»[1]. وتعرض رواية «حفرة الثلج» بانوراما لأنماط وجود يهودى متعدد الأشكال :ـ

– شخصية أروين، التي تعبر عن حفيد لحاخام (أدمور)، ومنفصل، تماماً، عن اليهودية.

– شخصية يوتس، وهو من النوع الذى يعبر عن نموذج نصف أسطورى.

– شخصية حليكتين، وهو يهودى مرتد، حيث أنه بكل قواه يرغب فى العودة لليهودية.

– شخصية ماركس، وهو شيوعى معادى لليهودية.

– ويوجد، أيضاً، ضباط نازيون من أصل يهودي، وغيرهم.

والتوجه إلى الإيمان، منه ما يؤدى هنا بطرق مختلفة وغريبة، حيث نجد الألمان لعدة مرات يجبرون اليهود فى الجيتو على الصلاة (الانتساب لليهودية لمفهوم معروف ومعقد، وأيضاً، حتى على اليهود المندمجين)، ولمرات عديدة، نجد الجوع والبؤس يصنعان يهودياً شيوعياً يحمل الأمل فى أن يكون يهودياً من النوع القديم، اختيارات هؤلاء اليهود عند إطلاق سراحهم من المعسكر مختلفة جداً، هذا عن ذاك، ونتائجها (للذين بقوا على قيد الحياة) تعطى انطباعاً من الحيرة (التشوش) عن وجود دينى قوى، ثم المادية الخاصة فيما بعد أحداث النازية. ويوجد المرتبطون بالرب، وهناك من انتحروا، ويوجد من عملوا كجنود، ويوجد من وقفوا فى منتصف الطريق، والخوف من العودة لبيوتهم (حيث احتمال عدم وجود هذا البيت)، وحيث لا توجد الأسرة

(١) באומל יהודית: לגעת בקור לגעת בחושך, מכרה הקרח, אהרון אפלפלד, הארץ, 22/ 4/ 1998, גליון 269, עמ'5.

والأصدقاء، أيضاً. ولم يتضح تفصيلاً موقف أبيلفيلد، ولكن في الصفحة قبل الأخيرة رأى «أروين» (بطل الرواية) حلماً، وبه ادعى أشياء إذ لا توجد فنون يهودية، حيث الصمت الغريب لروح اليهودى، وبدون صمت لا يوجد فنون، الشعر فى كل فقرة عند أبيلفيلد، وفى كل مؤلفاته، تبرهن العكس التام: الأدب عند أبيلفيلد على الأقل فى رواية «حفرة الثلج» ينبع بالتأكيد من خلال الصمت، وفنه الكبير فى تكوين تأثيرات ذلك الصمت، العالم المنظم والرجال المحطمون فى الطريق إليه»(١).

«تدور أحداث رواية «حفرة الثلج» حول قصة تخبط وشبيبة شاب يهودى، أثناء سنوات الحرب العالمية الثانية القاسية، وبداية أحداث الرواية فى الجيتو اليهودى، واستمرارها فى معسكر العمل على نهر البوج، ونهايتها في رحلات الناجين من المعسكرات، بعد التسريح. أضف لذلك عقدة بطل الرواية المتداخلة حتى النهاية فى مصير الطائفة اليهودية، وإن كان هذا غير كاف. وفى محاضرة حبكة الرواية ينتقل الراوى من الشخصية الأولى بصيغة الجمع إلى شخصية أولى واحدة ـ فعلى سبيل المثال، في بداية الرواية فى معسكر العمل الواقع على نهر البوج بأسلوب الجمع (نحن هنا منذ شهرين ونصف وهذا دهر)، أو (في البداية، كان على ما يبدو أننا سنمكث هنا لأيام قليلة فقط) (ص٧)، وأيضاً، في موضوع الدكتور هولندر (صفحات ١٠ – ١٥) المكتوب بحب كبير ومودة ظاهرة، من خلال الشخصية الأولى بصيغة الجمع، وفى مقابل ذلك، فى الفقرة الثانية أوضح بها الراوى تخبطات بطل الرواية وحبه وشبابه، مغيراً اللغة إلى لغة متحدث مؤيد له، ومن ناحية ثانية وجود التشابه حيث أمامنا قصة يرتبط فيها هذا بذاك، وجذور لليهودي الوحيد، وجذور الطائفة اليهودية، وإذا أردتم الشعب اليهودى»(٢).

وحول بطل رواية «حفرة الثلج» يقول عاموس برت: « منذ بضعة سنين، سمعت على لسان «حييم جورى» قصة عن صبى يهودى فى التاسعة من عمره، حيث نجح فى الهرب من بيته، في فترة «أحداث النازية»، وهكذا تشرد بين القرى والمدن، هرباً من تهديد جيوش الاحتلال. أخذ الفتى الصغير حبلاً سميكاً وربط سرواله بكل قوة، حتى يخفى

(١)ברושליין, דרור: הארון של אפלפלד, מקרה הקרח, הארץ, 26/ 9/ 1997, עמ'7.

(٢)רצבי, שלום: מתכוננים למלחמה חדשה, אהרון אפלפלד, נכרה הקרח, עתון 77, גל 212, איג 1997, עמ'9.

يهوديته، فقد قام بربطه أكثر من ربطه ربطاً جيداً حتى لا يفلحوا في رفع بنطلونه لأعلى، تشرد الصبي، على مدار سنتين كاملتين، في شتى أنحاء أوروبا القاتمة، حتى تمكن من النجاة، ولمدة شهرين بعد الحرب، ولكن يبقى، حالياً، شرخ عميق في داخله، فهو تائه يرجو جماعة تحتضن شبابه، وبين الحين والآخر، عندما تظهر قضية (من هو اليهودى؟) دون المفهوم السياسى، وإنما بمفهوم العمق الداخلى، فإن ذلك يذكرنى بتلك الرواية»[١].

«وأساليب الصراع كثيرة ومتلونة: تطرف، وانتحار، والأخذ بالمعتقدات الدينية، ومسلسلها اللانهائى، أو العادات، أو أية فكر آخر. كما أن هناك درجات مختلفة من الاغتراب واللامبالاة، أو ما شابه ذلك. ولكن كل الحلول من ناحية تكافؤ الميزان مشوشة بين أمل واه ودمار، وبين بساطة ضائعة ومحاولة لا يمكن أن تفهم. إن أبطال رواية «حفرة الثلج» مضطرون للاستمرار والبحث عن تكافؤ الميزان، وذلك حتى بعد إطلاق سراحهم»[٢].

شخصية «هوينج» وهو متزعم مجموعة الملجأ، يحاول، دائماً، أن يكون مثالياً أمامهم متحلياً بالقوة، ولكن في النهاية كان مصيره الانتحار.

شخصية «أبيده» وهى فتاة متقلبة أيديولوجياً بين الأفكار المتناقضة فى ملجأ هوينج وزملائه، حيث تتقلب ما بين اليمين واليسار.

شخصية ضابط المعسكر (من أصل يهودى)، ويعامل اليهود بقسوة تفوق قسوة النازية؛ لإرضاء النازيين، ولمصلحته الشخصية.

تجربة الكاتب الشخصية، ومصادر التأثير فى إنتاجه الأدبى:

«تعلم أبيلفيلد العبرية، وتمكن منها من خلال عمله بالكيبوتس، وببراعة شديدة استخدم لغته الجديدة فى كتابة سلسة من الروايات، التي نالت أعجاباً وتقديراً بالغاً، تدور حول «فظائع الهولوكوست»، ويقول أبيلفيلد :«إنه أصبح كاتباً؛ لأنه فقد والديه،

(١)ברט, עמוס: מכרה של הקרח או מחצי אנוש, עמודים, ירחון, הקבוץ הדתי, נובמבר 1997, עמ'24.

(٢)הירש, אלי: ספרות, הסתבכותם חסרות התקנה של חולי הזמן, מעריב 15/ 8/ 1997, עמ'5.

أثناء الحرب، وجاء إلى إسرائيل بينما يحاول استعادة الأمل من خلال الكتابة، فالكاتب يرنو إلى فهم شيء، على بلورة شيء فى عقله»[١].

قتلت والدته وهو فى سن الثامنة، وبقى مع والده حيث تنقلا من معسكر لآخر، حتى اقتيد بمفرده بعيداً عن والده مع مجموعة من الأفراد لأحد المعسكرات، وطوال تلك الفترة كان لديه أمل أن يقابل والده.

« في بعض الأحيان، وبصورة متعاقبة، كان يتوجه إلى الوكالة للبحث عن اسمه فى قائمة الناجين، أو يستمع للإذاعة لـ«شعبه البحث عن أفراد العائلات»، وفى أحد الأيام، عام ١٩٥٣م، عندما كان عمره ٢١ عاماً، رأى في أحد القوائم اسم ميخائيل أبيلفيلد، قالوا له إنه هاجر إلى إسرائيل، منذ فترة وجيزة. شيء ما أخذني إلى حديقة بجوار «يفنة»، حيث يعمل هناك المهاجرون الجدد، بشكل مؤقت، أشاروا لي على رجل مسن حيث يجمع البرتقال، لم أعرفه، ولكنه عرفني على الفور، وجرى تجاهى»[٢].

وفى معرض إجابته عن السؤال الخاص بعثوره على والده، ولم يحدث العكس؟ (هل غضبت منه لأنه لم يبحث عنك طوال هذه السنين؟) قال أبيلفيلد:«لا: لقد ظن أننى مت، فهو لا يمكنه أن يتصور أن طفلاً فى العاشرة، يعيش وحيداً فى الدنيا، يبقى على قيد الحياة». ودرست في الجامعة الأدب العبرى واليديش، وكنت ألتقي مرات عديدة مع والدى، حيث كان يسكن فى القدس، ويعمل موظفاً بضريبة الدخل، حيث حكى لي ذكريات عديدة، عن الأطعمة وفطائر معينة، حيث كان المهم بالنسبة لى أن أذكرها وأكتب عنها؛ فيما توفى والدي، عام ١٩٧٧م»[٣].

ويقول أبيلفيلد :«كانت محنة والدى فى معسكر العمل الذى اقتيد إليه وانفصل عنى، الشرارة التى أشعلت عندى كتابة رواية «حفرة الثلج»، حيث بدأت الكتابة منذ عشر سنوات، ولكى أكتب شعرت أن هذا لا يزال النغم الصحيح»[٤].

---

(١) Author Aharon Appelfeld talks about his favorite novelists writers on my mind, Jerusalem Post, 22/ 1/ 1998, p.11.

(٢) נגב אלות: האהבה הצילה אותי ידיעות אחרונות 12/ 9/ 1997 עמ' 5.

(٣) שם עמ' 6.

(٤) שם אותו עמוד.

obeikan.com

وقد أجاب عن سؤال حول ما تعرض له والده بالفعل، وسرده له، « هل تحدثت مع والدك عما جرى هناك؟» يقول:« حكى لى والدى عن عدة أشياء عن الجسر، ولكنـى لا أستطيع أن آخذ الأمور التى حكيت لي، إلا ما ينفـذ بـداخلى فحسـب، أنـا لا أعمـل أى تحقيق عندما أكتب، أنا لا أكتب من الذى أسمعه إلا مـا أسـمعه فحسـب، مـن داخـلي، ويؤثر عليَّ. كل الصور التى أصفها هى أنا»[١].

وقد وضعه الأدباء والنقاد فى المربع الخاص بأدباء أحداث النازية على خريطة الأدب العبرى المعاصر، «ولكنه على العكس من ذلك، فالمعروف أن أحداث النازية ليست إلا بداية لنهر جليدي، فقطع المصير، والرغبة في الحياة والموت للطائفة اليهودية، ارتبط بها مثل سيف مسلط على رأسه، لسنوات عدة بعدها، أيضاً، فكتاباته هى تعبير متعمـق جـداً لتلك الظلال، التي لم تختف، حتى بعد مرور خمسين عاما[٢].

وفى رواية «حفرة الثلج»، وكمـا في بـاقى روايـات أبيلفيلـد، نجـد الأحـداث تغطـى مساحة زمنية تسبق أحداث النازية، وكذلك تعقبها لتفصيل ما حلَّ بالناجين، ومصيرهم، وتوجهاتهم، وما يدور بخلدهم عن المستقبل.

ويربط أبيلفيلد فى كتاباته ما بين الماضى والحاضر، متضمناً الشتات، والمهـاجرين، وأحوال الطائفة اليهودية، وما حل بها، وما اعتراها من أحـداث كانـت تـؤثر، ولا يـزال تأثيرها، حتى اليوم، مثل أحداث النازية، والمعسكرات، ومصير الباقيين على قيد الحياة، وهذا هو شغله الشاغل؛ لأنه يشعر فى داخله أنه ووالده ضمن مـا يكتـب عـنهم فى هـذه الأحداث.

وفى لقاء مع الأديب «أهارون أبيلفيلـد» تـم مـؤخراً عـلى صـفحات مجلـة Boston Review. A political and Literary forum، تطـرق إلى الشـتات، والنازيـة، وحياتـه الخاصة المتعلقة بجذوره الأولى، من خلال إجاباته على أسئلة« آن برسون»، ومنها:ـ

* لقد ذكرت فى إحدى المرات أن اللغة الألمانية تنفرك، فماذا قصدت بذلك؟ هـل

(١)שם אותו עמוד.

(٢)שקד, גרשון: אהרון אפלפלד, ספרות צד החפר, בכל דור ודור חייב אדם לראות את עצמו, ספרות הארץ, 27/ 7/ 1994, עמ'8.

obeikan.com

تعنى طريقة اللفظ بها؟ أم ماذا؟

وكانت إجابة أبيلفيلد :«سيكون تناقضاً، بل وسيكون مأساوياً أن أكتب بلغة القتلة، والسفاحين، إن مجرد التفكير فى ذلك كفيل بالنهى عن القيام به، لقد عانيت كيهودي، وكنت أحاول أن أبحث عن جذوري، وعائلتي كانت من اليهود، وبالتالي كان من الطبيعى أن يصل بى تاريخ وثقافة اليهود إلى اللغة العبرية، اللغة اليهودية الرئيسية النابعة من الكتاب المقدس».

*** ما هى المشكلة الرئيسية التى تواجهك ككاتب؟**

قبل كل شيء، أن تكون كاتباً يهودياً فهذا التزام وواجب ثقيل، لقد قتل أعضاء أسرتى المقربين، واغتيلت بيئتي الطبيعية، وطفولتي، وذكرياتي الجميلة. ولهذا فإنه نوع من الالتزام أشعر به، وهو أنى أتعامل مع حضارة تم اغتيالها، فكيف أستطيع أن أمثلها بأكثر الطرق تقديراً واحتراماً، ليس أن أتحدث عنها كما هي، تماماً، وليس أيضاً أن أتحدث بمبالغة عنها، ولكن أن أجد الصيغة لأمثلها باستخدام التعبيرات الإنسانية[1].

*** إذن هذه هى الصعوبة الرئيسية أمامك؟**

نعم، لابد من الوفاء بهذا الالتزام، وعلى الرغم من أنني لا أحب تعبير أو كلمة «مهمة»، ولا أحب الكاتب الذى يتحدث عن المهام، ولكن إحساسى بأننى يجب أن أعيد بناء ليس فحسب، حياتي الشخصية، ولكن أيضاً، الحياة اليهودية ـ مائتى عام ـ ثلاثمائة عام ...، وماذا تعنيه؟ من هم اليهود الذين عاشوا فى المجتمع الأوروبى؟ ولماذا تم القضاء عليهم؟ هذا سؤال لابد أن أوجهه لنفسى كل يوم، ويجب علّى بشكل ما أن أجد الإجابات، وليس بتعميمات، ولكن بالتفصيل»[2].

*** كيف تنظر إلى الشتات اليهودى فى أمريكا؟**

اليهود فى أمريكا يعيشون هوية مزدوجة، ولكنها تقل، شيئاً فشيئاً، إذ يصبحون أكثر

---

(١) Parson, Ann: Interview, Aharon Appelfeld, Boston Review , A political and Literary forum.

(٢) http://www.oston Review.netBro706/Appelfeld.Html , 14/ 4/ 2004, p.6.

ميلاً نحو الجانب الأمريكي فى هويتهم، وأقل يهودية، وربما أكون أنا أول شخص تقابله يعرف نفسه كيهودى ـ يقول فى أول جملة له أنا يهودى، أنا كاتب يهودي، إننى أكتب من أجل اليهود، ولا أدعى أو أطالب بفهم الأمريكيين.

* ذكرت في إحدى المرات أن الأيديولوجية الصهيونية نوع من الفكر الذى يغلب عليه التمنى، هل يمكنك تفسير ما تعنيه بذلك؟

لقد قامت الفكرة الصهيونية على جمع كافة أفراد «الشعب اليهودى» المشتت فى جميع أنحاء العالم، وإعادتهم «لأرضهم»، هذه كانت الفكرة، ولكن ما حدث أن جزءاً صغيراً جداً من «الشعب اليهودى» جاء إلى إسرائيل، وهذه مأساة من وجهة النظر الصهيونية، وربما أيضاً اليهودية. إن الأغلبية العظمى من اليهود فضلت البقاء فى دولها (الشتات)، وألا تنضم للمجتمع اليهودى، وبالتالى فقد كان فكراً قائماً على الأمنيات، ولم يتم تحقيقه بالفعل».

ثالثاً: سامى ميخائيل (١٩٢٦م)، ورواية «فيكتوريا» (١٩٩٣)

ولد سامى ميخائيل فى بغداد، عام ١٩٢٦م، حيث تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي فيها، وقد انضم إلى الحركة الشيوعية، في سن مبكرة، وشارك فى تحرير نشراتها حتى هروبه من العراق، عام ١٩٤٨م. وقد تعرض لمطاردة السلطات العراقية بسبب نشاطه الشيوعى المحظور رسمياً، آنذاك، حتى تمكن من الهرب إلى إيران، ومنها هاجر إلى إسرائيل، عام ١٩٤٩م.

التحق بقسم الأدب العربى بجامعة حيفا، وتخرج من قسم علم النفس، بدأ مشواره الأدبى بكتابة بعض القصص القصيرة باللغة العربية، ثم تحول إلى العبرية، واتخذها لغته الأدبية، وقدَّم من خلالها العديد من الأعمال التى عكست صورة اليهودى الشرقي، وخاصة العراقي. يعد ميخائيل من أدباء الطوائف البارزين فى الحقل الأدبى بإسرائيل، وله مواقف شخصية عن طائفته ودفاعه عنها، حيث عبر عن هذه المواقف فى مقابلاته وتصريحاته، ومن خلال أعماله الأدبية.

وتعد رواية فيكتوريا من أهم أعماله الروائية التى تعبر عن طائفته، والتى سوف نتناولها بالبحث والدراسة فى ثنايا البحث.

أولى روايات ميخائيل هى (متساوون ومتساوون أكثر)، وآخر رواياته (مياه تقبل مياه ـ إصدار عم عوبيد، ٢٠٠١م).

ومن أشهر رواياته (لاجيء)، و(حفنة من ضباب)، و(بوق فى الوادى)، ولكن رواية فيكتوريا تعتبر من رواياته المهمة، حيث ترجمت للعديد من اللغات، وهى الأكثر مبيعاً، وتدور أحداثها فى مسقط رأس الكاتب، وموطن ولادته بغداد، حيث العلاقات الاجتماعية والعائلية لأسرة يهودية فى الشتات العراقي.

وقد حصل سامى على الدكتوراه الفخرية ثلاث مرات، كما حصل على العديد من الجوائز، كان من بينها جائزة زئيف، وكوجيل، وحصل مرتين على جائزة رئيس الحكومة للآداب. وهو يكتب عن الطائفة اليهودية فى الشتات الشرقى والعربي، وخاصة العراق، ولم تخل كتاباته من السخرية، وهو يتناول أحوال طائفته ما بين العراق وفلسطين، والصراع بين الثقافتين العربية واليهودية، ودور طائفته فى الحضارة العربية فى العراق، ويذكر، دائماً، أنه ما زال يصنف ككاتب يهودى قادم من العراق، وأنه هناك كان فحسب يهودياً، لكنه فى إسرائيل يهودى عراقى. ومازال سامى يكتب، وينتج، ويقيم في حيفا.

ومع استقراره فى حيفا، انضم إلى أسرة تحرير «الاتحاد» الناطقة بلسان الحزب الشيوعى الإسرائيلى، ونشر العديد من القصص العربية القصيرة فى مجلة «الجديد» الشهرية، تحت اسم «سمير مارد»، كانت تدور حول حياة القادمين الجدد من العراق، ولكنه ترك هيئة تحرير الاتحاد، عام ١٩٥٥م، وبعدها هجر اللغة العربية كلغة أدبية، ثم تحول إلى اللغة العبرية[١]، مما جعله يتمتع بهذه المكانة التى تحولت إلى نموذج فريد، استحق التقدير، والجوائز، والشهادات التي حصل عليها.

وحول تحوله من التعبير بلغته، ولغة أجداده، وجذوره، وثقافته العربية إلى العبرية، يقول:« بعد قدومى إلى إسرائيل جابهت وضعاً لا يطاق. قرأت الإنجليزية، وتحدثت العبرية، وفكرت وكتبت بالعربية. استمرت هذه الفترة ست سنوات. فى تلك الأيام عملت فى هيئة تحرير إحدى المجلات الأسبوعية العربية، لقد تطورت لغتى العربية الأدبية فى إسرائيل، على وجه الخصوص، إلا أنه كلما ازددت غوصاً فى اللغة العربية،

(١) إدريس، محمد جلاء (دكتور): المرجع السابق، ص١١٥.

أدركت أنني أتحول إلى نبته غريبة فى إسرائيل، والحاجز الذى فصل بينى وبين اليهود فى إسرائيل، ارتفع وعلا، وصارت اللغة حدوداً صلبة وراسخة. فعندما وصلت إلى إسرائيل، ١٩٤٩م، كانت هجرتي عملاً فنياً لم يتطلب منى أى التزام أخلاقى أو قومي، ومثل كافة المطاردين بسبب آرائهم تنقلت من مكان لآخر، كانت إسرائيل فى نظري، ولسنوات طويلة، ملجأ، مؤقتاً، يمكن استبداله بملجأ آخر، في كل لحظة. وقد كان للانتقال النهائى من العربية للعبرية أبعاد عميقة بالنسبة لى، وعندما اتخذت القرار أدركت أن هذه هى الهجرة الحقيقية لإسرائيل[1].

وما يعنينا هنا من أقوال سامى ميخائيل، أن إسرائيل لم تكن الهدف النهائى له، ولا المكان الآمن والملاذ الأخير كما ادعت الصهيونية عندما توجهت بأساليبها المختلفة لاقتلاع اليهود من دول شتاتهم، وأماكن استقرارهم وهو يهودى عراقى، كان من الصعب عليه الانسلاخ من ماضيه وجذوره الشرقية.

ويقر سامي ميخائيل، أيضاً، بقوة التأثير العربى عليه، وصعوبة الانسلاخ منه، فهو عراقى يحمل فى داخله ثقافة شتاته وجذوره. فيقول:«أوقعت الطلاق بينى وبين اللغة العربية، إلا أن طابعها وتأثيرها لا يزالان باديين فى أسلوب كتابتى، وإذا كنت قد تمكنت من أسلوب خاص بى، فإن أساس هذا الأسلوب هو الدمج بين العربية التصويرية، وبين العبرية الحديثة الجوهرية، وأنا أميل شخصياً إلى هاتين الميزتين المتناقضتين»[2].

ومما يؤكد أن يهود العراق كغيرهم من باقى يهود الشتات قد تم اقتلاعهم من جذورهم بوسائل الصهيونية، التي صورت لهم أنهم سيهاجرون إلى الجنة، بعيداً عن نار إقامتهم، فعلى سبيل المثال، يصور سامي ميخائيل الحياة فى العراق فى أبهى صورها بالنسبة لليهود، مقارنة بما لاقوه من صدمات وأحوال معيشية قاسية بعد الهجرة، فالحياة فى العراق ـ على الرغم مما كان بها من مشاكل ـ أرحم بكثير مما قوبلت به الطائفة العراقية فى فلسطين. وعن هذا يقول:« وما إن انتهت الحرب العالمية الثانية، حتى وجد يهود بغداد أنفسهم فى إحدى فترات عصرهم الذهبى، فقد وصلت

(١) سامى ميخائيل: الانتقال من لغة إلى أخرى، مفجاش، العدد ٣، ١٩٨٦، ص٢.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣.

إرسالياتهم إلى الصين والولايات المتحدة، وصارت أمور العراق الاقتصادية فى أيدى أبنائها... وفى عام ١٩٤٦م، كان من بين اليهود الشعراء، والقضاة، والمفكرون، والصحفيون، والأطباء، والأدباء، وكان على هؤلاء أن يشكلوا صورة الدولة المتفتحة، كما لو كانوا باقين فيها للأبد. هكذا كانت الأوضاع فى عيون أبناء تلك الطائفة العريقة»[١].

وهذه الصورة توضح مدى ما حدث للطائفة اليهودية بالعراق، حتى تمت هجرتها، فقد كان للطائفة شأنها ومشاركتها فى شتى نواحى الحياة هناك. ويبرز سامي ميخائيل التفرقة التى لاقتها الطائفة اليهودية فى المعاملة من اليهود إثر هجرتهم في مقابل المساواة فى أرض الشتات، ويؤكد على خديعتهم من قبل الصهيونية، حيث يقول: «لقد اعتقدنا أننا عدنا إلى بيتنا، يهود بين يهود، شعب واحد، لكن ليس الأمر هكذا، فهناك من يقسم الجميع هنا على شعبين، أتذكر، كانت لنا فى العراق مشاكل، ولكننا لم نكن بأقل منهم، ولا يطاردون اليهود، الحمد لله. ولكننا قبل أن نأتى، حددوا لنا وصفاً آخر، مكانة من الدرجة الثانية»[٢].

وعلى لسان احدى بطلات روايته «أكواخ وأحلام»، كان تلخيص الصدمة التى واجهت أبناء الطائفة إبان هجرتهم، « لقد كذبوا علينا.. خدعونا .. ألقوا بنا فى خيام وأكواخ مملوءة بالفئران والصراصير، وقالوا: هذه هى الأرض الموعودة»[٣].

وتصوير اللحظات الأولى للوصول من الشتات إلى فلسطين، هو دائماً موضوع يطرق فى أعمال أدباء الشتات، فقد قام ميجد بتصوير هذه اللحظات، عندما وصل إلى يافا مع أسرته، وما عبر عنه من مرارة وقسوة، فيما بعد. وقد صورها أيضاً سامى ميخائيل، في روايته «متساوون ومتساوون أكثر». فيقول: « خلال خمس دقائق قصيرة، نجح الوطن الجديد فى أن يقلب حال أبى، من بطل يتربع على قمة مجده إلى سقوط متاع هرم ذليل. فبينما يهبط من على سلم الطائرة، متلهفاً مثلنا إلى سحر إسرائيل التى حلمنا بها، ظهر من

(١)سامي ميخائيل: حفنة من الضباب، تل أبيب ١٩٧٩، ص٧.

(٢)سامي ميخائيل: متساوون ومتساوون أكثر، تل أبيب ١٩٧٤، ص٢٥.

(٣)سامي ميخائيل: أكواخ وأحلام، تل أبيب ١٩٧٨، ص٩.

بين أفراد تلك المجموعة التى همت لاستقبالنا شخص يحمل بيديه آلة رش ضخمة، وقبل أن نفهم ماذا حدث، غطت سحابة بيضاء من مسحوق دى. دى. تى. أبا شاؤول الذى كان مواطناً محترماً ووجيهاً بين أفراد طائفة بغداد... وبعد هذه اللحظة المهينة، ودون أى كلمة، وبعد أن تصرفوا إزاءه كما لو كان على رأس قطيع من الغنم، لمحت أبى يقتحم أخر معركة له، من أجل الحفاظ على كرامته الشخصية: كتم العطس، وسالت الدموع من عينيه»[1].

من هنا، كانت مصادر التأثير على الإنتاج الأدبى لسامى ميخائيل نابعة من جذوره الأولى فى الشتات، والظروف التي تعرضت لها طائفته بعد الهجرة، حيث أضفت تلك الأمور لوناً خاصاً فى تعبيراته وأفكاره، من خلال تجنيد هذا الأدب للدفاع عن شرقيته.

وكانت رواية «فيكتوريا» من أكثر الروايات عناية بحياة الطائفة اليهودية فى العراق وفى فلسطين، من خلال العلاقات الاجتماعية المتشابكة لعائلة يهودية، تشمل الأجداد، والآباء، والأحفاد، وعلاقاتهم، وامتداد هذه العلاقات مع باقى شخصيات الرواية مع الجيران، والحاخام، وغيرهم.

وإذا كانت حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣م، قد أحدثت انقلاباً جذرياً فى إسرائيل، في شتى النواحي، فقد كان لها أثرها على الساحة الأدبية، فقد صورها الأدباء فى أعمالهم، وجاءت الحيدة والصراحة فى أعمال أدباء الشتات الغربى والشرقى، فقد صورها ميجد فى أكثر من رواية، وها هو سامى ميخائيل يلتقى معه بنفس الصراحة والحيدة فى إحدى رواياته، حيث التصريح بقوة الجيش المصرى: «لقد دق الجيش المصرى عظام الجيش الإسرائيلى الذى هزم وتشتت، هناك العديد من الأسرى»، العلم المصري يرفرف على الضفة الشرقية للقناة، والجنود المصريون يعبرون القناة بدباباتهم، كما لو كانوا فى عرض عسكري، طائرتهم تجوب السماء، ولا مزعج لها، والمدرعات الإسرائيلية تحطمت، والمدافع تحطمت»[2].

***

(١)سامى ميخائيل: متساوون ومتساوون أكثر، ص١٨-١٩.

(٢)سامي ميخائيل: لجوء، تل أبيب ١٩٨٥، ص٢٨٣.

الشتات اليهودي والدولة، والصراع العربي ـ الإسرائيلي في فكر ورؤية سامي ميخائيل:

«يعرض سامي ميخائيل في رواية «لجوء» من خلال أحداثها للعديد من القضايا العربية ـ الإسرائيلية، فتقسيم فلسطين مازال راسخاً فى الأذهان، واستئثار اليهود بالأراضى الغنية، وإعطاء العرب الأراضى الفقيرة، لم يغب عن عيون العرب فى إسرائيل، رغم مرور أعوام وأعوام، وأحوال العرب القاسية، إثر قيام إسرائيل، وطردهم من مساكنهم وأراضيهم، وتحولهم إلى لاجئين بلا مأوى من قيظ الحر، وزمهرير الشتاء، وتعرضه، أيضاً، (لجوء) خلال أحداثها، والحرية التى تزعم إسرائيل أنها تمنحها للعرب، ليست في الواقع إلا حرية الصراخ من الألم الذى تسببه إسرائيل للعرب، فالعربي الفلسطيني عاش سنوات طويلة بحاجة إلى تصريح من السلطات لينتقل من قرية إلى أخرى، على آبائه، وأرض أجداده. وفى حوار عربى ـ إسرائيلي يتناول الكاتب قضايا جديرة بالاهتمام (فطوبيا) يرى أن انتصار العرب فى حرب أكتوبر، هو مقدمة للتفاوض من أجل السلام، وهو ما حدث بالفعل من بعض أطراف النزاع»[١].

وحول الصراع العربى ـ الإسرائيلي، يقول سامي ميخائيل:« إنني أكتب عن الصراع فى مجمله، فعندما أكتب عن شخصية يهودي أو إسرائيلي، فإنني أكتب بصفتي كاتباً يهودياً، وعندما أصف شخصية عربية، فإنني أكتب وكأني كاتب عربي يكتب عن العرب، لهذا فالعربي ليس هو الآخر، بل إنه أنا نفسي، أيضاً. وذلك ينطبق بالمثل على الكتابة عن كونى إسرائيلياً، فإنه ليس الآخر بذاتي كذلك. وعند سؤاله هل ينتابك الشعور بأنك ممزق بين الحياة التى خلفتها وراءك بالعراق (الشتات)، وتلك التي تعيشها الآن فى إسرائيل؟ أجاب ميخائيل :«·أنا مثل البقلاوة، حلوى تتكون من العديد من الطبقات، ولكن كل طبقة منها تتصل بالأخرى، وتذوب بها ـ لذا فإننى لست ممزقاً، أو مشتتاً، فأنا أحب ماضى وحاضرى، وأحب الوقت الذى مر بينهما»[٢].

* إذن هل تشعر أنك بوطنك هنا؟ أم أنك تجد موطنك باستخدامك للغة؟

---

(١) إدريس، محمد جلاء(دكتور): المرجع السابق، ص٢٠١.

(٢) Black, F. M: Forward, Arts letters, 29/ 11/ 2002, Sami Michael, Jews are the Baromeer.

ـ إننى لا أعتقد أن وطن الإنسان، حتى بالنسبة لمخلوق روحانى مثل الكاتب يمكن أن يتمثل، ويوجد في اللغة، فاللغة أغنية ولا تزيد عن ذلك، إن وطن الكاتب وبيته يوجد حيث يوجد مسكنه، وموطنه الفعلي، وبيته الحقيقي الذي يعيش ويقيم به، في الوقت الحالي، وبيتي لم يكن ذلك الذى عشت به فى بغداد، أو بأي منزل آخر أقمت به، ولكن ذلك المنزل الذى أقيم وأعيش فيه الآن، وهناك الكثير من الكتاب يحاولون الفرار من الحاضر، ومن السياسة، ولكن الهرب مستحيل[1].

وحول الواقع فى إسرائيل فى الوقت الراهن، ودلالات فشل الصهيونية، وانعدام الأمن داخل إسرائيل، كان السؤال التالى:

*** هل يوجد الآن تيار فى الأدب الإسرائيلى الحديث يتجه نحو الفرار من الواقع؟**

ـ اعتقد ذلك؛ لأن كافة كتابات ما بعد الحداثة فى الأدب هى نوع من الهرب من الواقع، ولكن ذلك يستحيل تحقيقه في إسرائيل، لهذا فكتابات ما بعد الحداثة فى إسرائيل تختلف عن نظيراتها المكتوبة فى فرنسا، وإيطاليا، أو انجلترا؛ لأن كتابات ما بعد الحداثة الإسرائيلية مشحونة بالقلق، والتوتر، والخوف، واليأس. ولكنه قلق فعلى، وليس متخيل، إذ إنه يمكنك ارتياد حافلة ما دون أن تدرى ما إذا كنت ستنزل منها أو لا!! بالضبط، ولهذا فعندما يسألنى أحد عن موعد وصولى، فإننى أجيبه: «أنا أعرف متى سأغادر المنزل، أما موعد عودتى فلا أدرى عنه شيئاً»[2].

***هل تعتقد أن اليهودى يعيش خارج حدود التاريخ؟ وهل هو غريب على الدوام؟**

ـ وفى معرض إجابته يؤكد على تقديره للشتات اليهودى فى شتى أنحاء العالم، قائلاً: «إذا أردنا أن نحدد من هو الغريب فى تاريخ ألمانيا، فسنقول إنه هتلر، وليس اليهود، فهو من خان الثقافة الألمانية، أنا لا أعتقد أن اليهود غرباء فى أمريكا، أو أوروبا، أو العراق. لقد كان لدينا شعور بالانتماء أكثر من العرب أنفسهم، إننا كنا هناك عبر العصور البابلية، والفارسية، واليونانية.

---

(١) Ibid, p.1.

(٢) Ibid, p.2.

***هل هناك ما يسمى بـ «اليهودي الجديد»؟ هل الإسرائيلي سلالة جديدة من اليهودي؟ أم أنها كلها مسميات فى إطار استمرارية التاريخ اليهودي؟**

ـ أظن أنه أسوأ شيء أن نقول أننا «خلقنا يهودياً جديداً إذ إننى أزعم أن هذا الموقف ينبع مباشرة من الشيوعية والماركسية، وأيديولوجية القومية العربية، والتى حاولت جميعها أن تخلق فرداً جديداً، فبادئ ذي بدء إنها كذبة، فبمجرد أن يبدأ أحد الحديث عن اليهودي الجديد، يتضح لك أنه يشير إلى المقاتل اليهودى المعتز بنفسه، البطل شمشون، وهو عجوز للغاية، وبالغ القدم حتى أن أسنانه تهرأت، وجثته تعفنت لدرجة لا تحتمل، فلا يوجد ما يسمى «يهودى جديد»، وكأن الناس يحاولون إغفال ونسيان فترة المنفى، وذلك صحيح. وعلى الرغم من أن واقع الأمر أن المنفى خلق أشياء جميلة مثل التلمود الذى كتب فى الشتات، وموسى (عليه السلام) عاش حياته بأكملها فى الشتات، ولم يدخل أبداً «الأرض الموعودة»، فلقد توفى خارجها، إن أهم الأشياء فى اليهودية تمت خارج فلسطين»[1].

ومن هنا يأتى تقدير الشتات اليهودى فى رؤية الكاتب سامى ميخائيل، وهذا ما سنعرض له من خلال رواية فيكتوريا.

رواية فكتوريا: الأبطال والأحداث

* فكتوريا: وهى بطلة الرواية، والتي تحمل اسمها، وهى فتاة يهودية عراقية تعيش فى الحى اليهودى فى بغداد، ولدت في بداية القرن العشرين، فى منزل مكتظ يضم أسرة يهودية واحدة. وتواجه فكتوريا منذ مولدها مصير فتاة يهودية أمية نشأت فى بيئة فقيرة، تسيطر عليها عادات وتقاليد راسخة، منذ مئات السنين، ويسيطر عليها الرجال بسطوتهم وغرائزهم، ووسط هذا كله تظهر شخصية فكتوريا عبر مراحل حياتها المختلفة، والطفلة، والصبية، والعاشقة، والمرأة، والأم في أفراحها وأتراحها، وهى تشق طريق حياتها، منذ بدايتها فى بغداد على شاطئ نهر دجلة، وحتى نهايتها كامرأة عجوز لأسرة كبيرة فى مستعمرة رمات جان فى إسرائيل، في نهاية الثمانينيات[2].

---

(١) Ibid, p.3.

(٢) سامي، ميخائيل: فكتوريا، ترجمة: سمير نقاش، تقديم ومراجعة: د. رشاد عبد الله الشامى، مركز الدراسات والترجمة لحوض البحر المتوسط، القاهرة، ١٩٩٥، المقدمة، ص١٩.

والرواية ترصد بدقة سيرة حياة أسرة ميخائيل، الجدة من خلال أبنائها الثلاث (يهودا الابن الأكبر، وعزورى والد فيكتوريا، وإلياهو والد روفائيل، زوج فيكتوريا، وأصغر أبناء ميكال)، وأبنائهم أحفاد ميخائيل (عزرا ومريم أبناء عزيزة ويهودا، وفكتوريا، وسليمة، ونظيمة، ونيسان، ومراد، وفؤاد، وباروخ، والبيرجيه، أبناء نجية، وعزورى، ورفائيل، وحزقيل، وأشير، أبناء حنينة والياهو)، وأبناء الأحفاد (نعيم ابن مريم، وجرجى الحداد، وكلمينتين، وسوزان، وألبير، وتوريا، أبناء فيكتوريا وروفائيل)، بالإضافة إلى جيرانهم فى البيت المجاور من أبناء حى اليهود (عبد الله نونو، وأبنائه، معتوق ونونه، وشقيقته حنة، وإلياس ابنها، وداود شقيق نجية، والدة فكتوريا، وتويا زوجة داود).

كل هذه الشخصيات بالإضافة إلى العديد من الشخصيات الثانوية (الحاخام جورى حتيايات، وجورجى الحداد، ورحمة، عفصة العاهرة، وجميلة القابلة، والنادبة، والخاطبة، ونعيمة زوجة الياس، وطوبة أم زوجة إلياس، ورفقة أخت نعيمة، وخضورى بائع اللفت الحمال، وكلاريس، وسلمان، وإسحق، وعليمة الخباز، والرجل العبراني، والشيخ الشيعي، وشاؤول ووالد فاضل الجمالى)، تتداخل في منظومة واحدة، يقدم من خلالها الأديب لوحة لواقع الحياة الاجتماعية والاقتصادية، والعادات والتقاليد الشائعة بين اليهود فى بغداد، من خلال محورىّ الرواية، وهما فكتوريا ورفائيل، على خلفية من الأحداث التى اجتاحت الحى اليهودي، أثناء الحرب العالمية الأولى، وبعدها، إثر احتلال الإنجليز للعراق.

إن فكتوريا، تسعى منذ أن أصبحت فتاة تحركت فى داخلها مشاعر الحب، إلى الظفر بروفائيل، تلك الشخصية التى استحوذت على إعجاب جميع النساء فى الحى اليهودي، والمعتاد على الترحال الدائم، ومرافقة الغانيات، كزوج لها، وحينما تفوز به زوجاً، يداهمه مرض السل، ويضطر لشد الرحال إلى بيروت للعلاج فى مهمة هناك، بينما كان الجميع، ومن بينهم فكتوريا، قد سلموا بأنه لن يعود؛ لأن مرضه العضال لا ينجو منه أحد، ولكن رفائيل ينجو من براثن المرض اللعين، ويعود ويستأنف حياته مع فكتوريا، دون أن يشعر أنه أصبح ملكاً خالصاً، كله لها؛ لأنه يظل يتعرض لمحاولات إغواء مستمرة من نساء أخريات يعشقنه.

«ونفهم من سياق الأحداث، ودون أن يدخل المؤلف فى تفاصيل حول هذا الموضوع، أن الأسرة كلها قد هاجرت إلى إسرائيل. ومرت بتجربة «المعبراة» المريرة، ولكن المقام استقر بها بعد ذلك فى مستعمرة «رمات جن» حيث بدأت الحياة تطيب لها فى ظل أسرة كبيرة العدد من الأبناء والأحفاد الذين شقوا طريق حياتهم فى إسرائيل بنجاح. وفى النهاية يعرض المؤلف لمشهد وفاة روفائيل فى إحدى المحطات الإسرائيلية، لتبقى فكتوريا وحيدة، بعد أن عاش روفائيل اثنين وتسعين عاماً، ظلت فيكتوريا خلالها الزوجة العاشقة له، فحتى اللحظة الأخيرة كانت تغار على فحولته من النساء الأخريات، وهو حتى على فراش الاحتضار يلفظ أنفاسه الأخيرة»[1].

«وتبدو الرواية على هذا النحو، وكأنها سيرة حياتية لأسرة يهودية فى حى يهودي فى بغداد، أو لأسرة سامى ميخائيل نفسه، لأنها تحفل بشخصيات حية من لحم ودم، ليس على المستوى الأدبى فحسب، بل على المستوى التاريخى الواقعى لحياة اليهود فى بغداد، قبل هجرتهم إلى فلسطين، يعزز هذا الاعتقاد ذلك الصدق الهائل فى رسم الشخصيات، وتركها تمارس حياتها، وتتحدث بطبيعة حية، دون تزويق أو محاولات لإسباغ أبعاد اصطناعية»[2].

(١)المرجع السابق، ص٢٠.

(٢)المرجع السابق، ص٢٠.